

قادة ومفكرين عسكريين:

سان تزو Sun Tzu (400-330 ق.م)

بقلم: ياسين حلاسة بن الذوايدي

مفكر استراتيجي صيني عاش خلال القرن الرابع قبل الميلاد، عرف بكتابه القيم "فن الحرب" أو بالصينية "بينق فا".

عاش سان تزو في فترة تعرف بفترة "الدول الصينية المتحاربة" Warring states Period (221b.c-453). وهي الفترة الأكثر دموية في تاريخ الصين، حيث يعتبر بعض الباحثين أن النظام المتعدد الدول Multi-States System الذي ينسب ميلاده إلى التاريخ الأوروبي بعد معاهدة واستفاليا ، قد ظهر إلى الوجود في تلك الفترة، من خلال بروز مجموعة من الدول المستقلة اهتمت بحماية مصالحها الوطنية، وحماية الدولة بأي ثمن، ومحاولة التأثير على باقي الدول.

و لعل هذا ما دفع سان تزو إلى إبداع ما يمكن أن نعتبره "أول كتاب في المجال العسكري" وهو كون سان تزو كان مواطنا في مملكة "تشي" التي كانت تعيش حالة حرب مع باقي الممالك مثل "شيو" و"تشين". وعلى هذا الأساس فان كتاب "فن الحرب" ذو الثلاثة عشر فصلا، غدا ذو أهمية عملية كبيرة لتلك الفترة.

بدأ سان تزو كتابه "فن الحرب" بالقول: "إن الحرب مسألة ذات أهمية حيوية للدولة، إنها قضية حياة أو موت، إنها الطريق إلى البقاء أو الدمار، انه من اللازم دراستها - أي الحرب- بشكل كامل". من خلال هذا النص يمكن القول بان سان تزو يعتبر من أوائل المؤسسين للمدرسة الواقعية في حقل العلاقات الدولية، من خلال إقراره بأن "القوة" هي محور التفاعل في العلاقات الدولية، وان الدولة يجب أن تكون في حالة استعداد دائم للحرب لأنها إذا لم تفعل ذلك، فستكون ضحية لأطماع الهيمنة التي تحرك الدول الأخرى، وهذا ما سيأتي لاحقا في الفكر الاستراتيجي للمنظر الهندي "كاوتيليا" الذي يرى بأن المنطق الذي يحرك العلاقات الدولية هو "إما أن تحتل أو ستعاني من الاحتلال".

من جهة أخرى فإن اعتبار سان تزو بأن مسألة الحرب ذات أهمية بالغة وينبغي دراستها بصفة منهجية، فيه تأسيس نظري لفرع "الدراسات الإستراتيجية" الذي يهتم بالدراسة المنهجية للبعد العسكري في العلاقات الدولية، وكيفيات استعمال القوة العسكرية كعنصر من عناصر قوة الدولة لتحقيق أهدافها السياسية في ظل بيئة دولية تتميز بالتنافس المصلحي.

المحاور الكبرى للفلسفة العسكرية عند سان تزو:

1. على عكس الكتاب الإغريقيين والرومانيين، سان تزو لم يركز على استعمال القوة العسكرية كخيار أول لحماية الدولة، لأنه يؤكد بأن الحرب هي مسألة جدية لأمجال للتعامل معها من باب الهزل واللامسؤولية، وبالنسبة إليه فإن الاستراتيجية الماهر هو القادر على هزيمة الخصم والفوز عليه بدون الدخول في حرب، في هذا السياق كتب سان تزو: "الفتاح-القائد- البارح يحبط خطط العدو، ويفكك حلفاءه، ويخلق تصدعات بين الملك والوزراء، وبين الرئيس والإتباع، وبين القادة والجنود، ويجب أن يكون جواسيسه وعملاءه نشطين في كل مكان يجمعون المعلومات ويبذرون الخلاف وينشرون الفتنة، في هذه الحالة فإن العدو قد عزل وانخفضت معنوياته كما أن إرادة المقاومة عنده قد كسرت، هكذا بدون حرب فإن الجيش قد قهر، ومدنه أخذت، ودولته قد سقطت".

2. "القوة العسكرية كحل أخير"، بالنسبة لسان تزو فإذا فشل الأساليب الغير عسكرية Non-Military Means في هزيمة العدو، هو المبرر للجوء لاستعمال للقوة العسكرية Military Power ، ولكن يتم استعمالها بـ"اقتصاد" أي وفقا لشروط حددها وهي:

أ - في اقل وقت ممكن: لأنه يرى بأنه لا توجد "دولة استفادت من الحرب المطولة".

ب بأقل تكاليف ممكنة.

ت بأقل خسائر ممكنة تقع على العدو.

١١١. قال سان تزو: "في المعركة، القائد يجب أن يدرس العوامل- أو العناصر- الخمسة وهي: التأثير النفسي والمناخ والتضاريس والقيادة والمذهب أو القانون. التأثير النفسي يتعلق بعلاقة الشعب بدولته، لأن الشعب سيضحي بنفسه من أجل دولته دون أي خوف من الخطر، والمناخ يعود إلى التقلبات التي قد يأتي بها الليل أو النهار كبرد الشتاء أو حرارة الصيف، التضاريس تعود إلى بعد أو قرب وسعة أو ضيق ودرجة الأمان التي تتميز بها خطوط السير التي ستتبع، أما القيادة فتعود إلى درجة الحكمة والشجاعة... الخ"، إن هذه العناصر لا تزال إلى اليوم من أهم العناصر التي تحكم الحروب المعاصرة، فحينما يتحدث سان تزو عن علاقة الحاكم بالمحكوم فإن هذا المبدأ قد لاحظنا تأثير في العدوان الأمريكي على العراق سنة 2003 ، فعدم التفاف الشعب حول النظام أدى إلى إسقاط النظام العراقي بسهولة، وكذلك الأمر يتعلق بالعناصر الأخرى كأهمية دراسة ميدان الحرب، وقد لاحظنا الخطأ الذي وقع فيه كل من نابليون وهتلر أثناء غزوهم لروسيا سابقا.

١٧. تحدث سان تزو أيضا عن أهمية "الاستخبارات" في الحروب، فقبل بدا العمليات العسكرية لابد من تجميع المعلومات الكافية عن مجتمع الخصم وثقافته ومدى ولاء الشعب للقيادة السياسية، وفي هذا السياق يقول سان تزو: " اعرف نفسك واعرف الطرف الأخر،مائة معركة مائة انتصار"

تلخيص لفصول كتاب "فن الحرب":

يتكون الكتاب من ثلاثة عشر فصلا وهذا ملخصها:

الفصل الأول: وضع الخطط: تحدث سان تزو في هذا الفصل عن العناصر الخمسة (التأثير النفسي والمناخ والتضاريس والقيادة والمذهب أو القانون)،وكيفية الاستفادة منها لتعطي للقائد العسكري ميزة تنافسية على حساب خصومه.

الفصل الثاني: خوض الحرب: شرح كيفية فهم الطبيعة الاقتصادية للحرب، وضرورة تخفيض كلفة الحرب قدر المستطاع.

الفصل الثالث: الهجوم باستعمال الحيلة: تحدث في هذا الفصل عن الإستراتيجية الهجومية وحدد أن الوحدة هي أساس القوة وليس العدد، والعناصر الخمسة الضرورية لأي نجاح.

الفصل الرابع: الترتيبات التكتيكية: أهمية الدفاع عن المواقع الحالية، وكيفية الاستثمار فيها، وكيفية التعرف على الفرص وليس محاولة إيجادها.

الفصل الخامس: الطاقة: شرح لكيفية استعمال الإبداع، وبناء الميزة التنافسية.

الفصل السادس: نقاط القوة والضعف: يشرح كيف أن الفرص تأتي من الثغرات المفتوحة في البيئة بسبب الضعف النسبي للأعداء في مجال معين.

الفصل السابع: المناورة: شرح خطورة المواجهة المباشرة، وكيفية الانتصار في المواجهات التي يكتسب فيها العدو ميزة علوية.

الفصل الثامن: التنوع في الوسائل: شرح الحاجة للمرونة في الردود، وكيفية الاستجابة الفعالة لتغير الظروف.

الفصل التاسع: زحف الجيش: يصف الوضعيات المختلفة في سير الجيش و الميزات التنافسية وكيفية الاستفادة منها، مع التركيز على محاولة فهم نوايا الأطراف المعادية.

الفصل العاشر: التضاريس أو الأرض: دراسة العوامل الثلاثة (المسافة، الأخطار، العقبات)، والحالات الستة الناتجة عن هذه العوامل، كما أن لكل وضعية من تلك الوضعيات ميزات وسلبيات.

الفصل الحادي عشر: الوضعيات التسعة: وصف تسع أشهر حالات للحملات العسكرية مع خطورة وميزات كل واحدة والطريقة الناجحة لترتيب الذات بنجاح مع كل حالة قصد الاستفادة القصوى منها.

الفصل الثاني عشر: الهجوم بالنار: Attacking With Fire يوضح كيفية استعمال الأسلحة وخاصة طرق الاستفادة من البيئة كسلاح. وفحص الأهداف الخمسة لأي هجوم

والأنواع الخمسة للهجوم الذي تستعمل فيه البيئة كسلاح، والردود الملائمة لأي نوع من تلك الهجمات.

الفصل الثالث عشر: استعمال الجواسيس: ويركز في هذا الفصل على أهمية تطوير مصادر فعالة للمعلومات، وكيفية إدارتها لتعمل بشكل فعال في فهم واستيعاب العناصر الخمسة لأي نصر عسكري كما حددناها سابقاً.

من خلال مطالعاتي المعمقة حول هذا المنظر الاستراتيجي والقائد العسكري فأنتي خلصت إلى إمكانية صيغة محورين أساسيين لنظرية سان تزو العسكرية وهي كالاتي:

1. فكر وقف الحرب: كما وضعنا سابقاً فإن الخيار العسكري عند سان تزو يجب أن

يكون هو الخيار الأخير نظراً لما يمكن أن تلحقه الحرب من عوائد سلبية على الأمة، بل ما يعرف عن سان تزو انه دعى إلى ضرورة الانضباط بالقيم الأخلاقية حتى أثناء المعركة فكان يتحدث عن إسعاف المرضى وإطعام المعتقلين وغير ذلك من القيم الإنسانية.

2. خوض الحرب بفعالية: ولكن سان تزو ليس داعية سلام كما يحلو للبعض تسميته،

فحسب الأستاذ رنجيت -الأستاذ بقسم الدراسات الإستراتيجية بجامعة شمال ماليزيا- فإن الذين يرون بأن سان تزو ليس من دعاة استعمال القوة العسكرية مخطئون في فهم المنظومة الفكرية لهذا المنظر، وإنما سان تزو بين بأن الوسائل الغير العسكرية يجب أن تكون أولى بالاستعمال للدفاع عن الدولة، ولكن إذا فشلت تلك الوسائل في حماية الدولة والشعب فإن الوسائل العسكرية يجب أن يتم استعمالها بأقصى كفاءة لتحقيق نصر سريع وشامل، وفي هذا السياق يمكن فهم كتابه والربط بين الأفكار الداعية للسلام وتلك الموجهة لقادة المعارك العسكرية من خلال كتابه "فن الحرب".

أما الملاحظة الختامية التي نختم بها، فإن كتاب سان تزو "فن الحرب" قد أثر على العديد من القادة العسكريين القدماء والمحدثين بما يحتوي عليه من آراء فلسفية متكاملة

لإدارة النزاع وتحقيق النصر، فقد أثر هذا الكتاب كثيرا على "ماوتسي تونق" سواء في حروبه أو في صياغته لنظريته الحربية حول "حرب العصابات" **guerrilla warfare**، وهناك أيضا من يرى بأن القيادة الأمريكية قد استفادت كثيرا من أفكار سان تزو في علمية عاصفة الصحراء وخاصة فيما يتعلق بمبادئ المكر والسرعة ومهاجمة نقاط ضعف العدو. وأخيرا فإن آراء سان تزو تجاوزت مجال التطبيق العسكري، لتتعدى ذلك إلى التطبيق في المجال الاقتصادي، من خلال إتباع توجيهاته لتحقيق الفوز بالزبائن والسيطرة على الأسواق وتطبيقها في مجال رسم خطط التسويق التجاري، بل هناك من يتحدث عن توظيف آراء سان تزو في إدارة العلاقات العاطفية كنشر الجواسيس مثلا لجمع المعلومات عن الطرف الآخر.

أهم المراجع:

- 1.Singh, Ranjit. **Sun Tzu.** lectures in Strategic Thought and Theories .Malaysia:University Utara Malaysia,2008/2009.
- 2.Griffith, B.Samuel. **The Art Of War.** Oxford: Oxford University Press,1963.
- 3.Lanning, L.Michael. **The Giant Book of Military Leaders.**London: The Book Company,1997.

